الأبوة في الجزائر بين الأصالة والحداثة

لونيس زهير

أستاذ في علم النفس الإكلينيكي بجامعة حسيبة بن بوعلي(الشلف)

مقدمة :

ان الشكل التنظيمي للعائلة التقليدية مبني على النظام الأبوي أين نجد الأب هو الوحيد الذي يملك السلطة داخل الأسرة أمّا الأم فكانت بشكل نسبي تحت سلطته. الهيكل العائلي كذلك أبوي النسب أي أن النسب و الأملاك ينتقل من الأب إلى الابن و البنات يخرجن من بيت أهلهن إلى بيت أزواجهن. لكن بعد 1962، شهد المجتمع الجزائري تحوّلات هامة مرتبطة بالنموذج السياسي المتبع، وذلك بالتمدّن والتصنّع والنزوح الريفي نحو المدن الكبرى. هذه الحركة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية ساهمت في ميلاد بنيات اجتماعية وأسرية جديدة.
هناك عدّة آراء تقول أنّ السبب الرئيسي و للتحوّلات الإجتماعية و الأسرية هو ظهور جيل جديد من النساء ينفر أكثر من سابقه من ثقل النظام التقليدي و يتطلع إلى الحداثة و ما تحمله من قيم و أفكار المساواة بين الرجل والمرأة في الأدوار الاجتماعية. الى جانب تغير وضعية المرأة هناك قضية اخرى لعبت دورا كبيرا في خلق حالة من الصراع والأزمة الهويتية العنيفة في الجزائر. اتحدث عن نسقنا القيمي الذي اصبح خليط من التناقضات اين نجد القيم التقليدية تتداخل مع القيم الحديثة إلى درجة أنها استطاعت أن تعيش جنبا إلى جنب وتتحكّم في سلوكات الأفراد وطريقة عيشهم بل والأخطر من ذلك أنها ترافق الطفل خلال عملية التنشئة الاجتماعية فتصنع له طريقا لا يحس فيه إلا بالغموض و الصراعات الداخلية.

ان التحليل السوسيولوجي الذي قام به د. عدي هواري[1] للمجتمع الجزائري المعاصر توصل الى ان الثقافة الأبوية، لم تبقى نفسها كما في السابق و لم تعد هدفا بحدّ ذاته. نجد ان الأب أو الجدّ لم يعد الوحيد من بيده السلطة كما كان كذلك في النظام التقليدي.فحسب التحقيق الذي أجراه د. بوتفنوشت مصطفى[2] حول الأسرة الجزائرية، أصبحت القرارات تتخذ داخل الأسرة بمشاركة

الأمّ التي أصبحت امرأة عاملة تتقاضى أجرة تصنع بها القرار داخل الأسرة. الأولاد البالغين كذلك أصبحوا هم كذلك صنّاع القرار، داخل الأسرة فلا يتخذّ الأب قرارا إلاّ بعد استشارتهم.
السؤال المطروح في كل هذا هو ما مصير الأبوة في الجزائر في ظل نظام ثقافي جذوره ممتدة في الأصالة و جذعه يتنفس الحداثة ؟

1 ما معنى الأبوة ؟

نجد في القاموس[3] ان مصطلح الأبوة يأخذ تعريف اسم مؤنث بحيث يشير إلى خاصية من خصائص الأب أو إلى إحساس أبوى . من جهة أخرى تشير الأبوة كذلك إلى الرابط القانوني الذي يربط الأب مع ابنه . فنجد الأبوة الشرعية , الأبوة الطبيعية , الأبوة الحضرية التي تنجم عن التبني .

-في المعجم النفسي التربوي نجد معنيين للأبوة :

- المعنى البيولوجي: وهو" الرابطة الدموية التي تربط الطفل لوالده الحقيقي" . [4]
- المعنى الاجتماعي: فهو "وظيفة أسرية اجتماعية تخص الأب، و هذا الأخير له صلاحيات في اسعمالها في تشريع القوانين اتجاه من هم مرتبطين بهم كأولاده أبنه أو ابنته".[5]

-الأبوة في التحليل النفسي :

الأب عنه فرويد :

يرى فرويد أن صلة الطفل بالأب تبدأ برغبة الأم بإنجاب الطفل من الأب، بمعنى ليس منذ ولادة الطفل فحسب بل قبل ذلك.

الأب عند لاكان :

يعرف الأب عند لاكان على أنه مفهوم و ممثل للقانون، ودخل في تكوين الطفل، من خلال التصور الذي كونته الأم عنه قبل ولادة

الطفل.

يدخل الأب كاسم لدى الطفل عن طريق الأم، ويرى لاكان أن هذه الاخيرة هي التي تعطي له المكانة في السجل الرمزي للطفل .

تكمن نقطة التقاء فرويد و لاكان في اعتبار كل منهما الوظيفة الأبوية مرتبطة تصور الام لها. من جهة اخرى نجدهما يختلفان في كون الأول يستند على الآواعي في التعريف بالأب بينما الثاني يستند على وظيفة الكلام مع ربطها بالآواعي.

-الأبوة في علم النفس التربوي.

"هناك فرقا بين الوالد البيولوجي و الوالد النفسي. فالوالد البيولوجي الاب والأم اللذان أنجبا الطفل، أما الوالد النفسي فيقصد به من يقوم بعملية الأبوة و الأمومه والتربية والرعاية النفسية وينطبق هذا على الاب البديل والأم البديلة والمدرس والمدرسة والطبيب والطبيبة وكل من يقوم بتربية الطفل ورعاية نموه النفسي، وأن الوالد النفسي ينبغي أن يكون قادرا عنى القيام بدورالوالدين وأن يحب الطفل ويقدره و يحترمه كشخص ويحب صحبته وتربيته". [6]

2 المجتمع الجزائري في ظل التثاقف و االتحولات الإجتماعية :

ان المجتمع الجزائري قد تعرض إبان الاستعمار إلى عملية تثاقف كان الهدف منها تحطيم ثقافته وغرس ثقافة المستعمر بدلها. والمجتمع اليوم يصارع مشكلتين: مشكلة ورثها عن الاستعمار الفرنسي ومشكلة يواجهها امام الاستعمار الجديد الذي يدعوا إلى أمركة العالم لا عن طريق البندقية ولكن عن طريق الهوائيات المقعرة وبدون أية مقاومة.

إن المجتمع الجزائري يتعرض إلى عملية تثاقف Acculturation ولعل ما سهل هذه العملية وسرع فيها، الوتيرة المتسارعة التي تتحرك بها المجتمعات مما جعلتها تدخل في حالة إرباك شديدة يصعب عليها استعمال ميكانيزمات المواجهة بل وحتى التفكير فيها. ذلك " لأن حالة التثاقف تحدث اضطراب شديد على مستوى التشكيلة العقلية للماضي وتجعل عملية البحث عن التوازن بين القديم والجديد، بين الأصيل والحديث صعبة الى مستحيلة. هذه الوضعية تدفع الفرد الى الدخول في حلقة مفرغة أين يتلمس بشكل سطحي الماضي و الحاضر والمستقبل."[7] يعبر مصطفى لشرف عن هذه الحالة قائلا:" ان الفرد الجزائري وجد نفسه رهينة لوضعية تدفعه بشكل لا متناهي الى التنقل بين استحالة العودة إلى الماضي واستحالة التكيف مع الوقت الحاضر المتقدم ".[8]

ان عملية التثاقف أول ما تفعله في المجتمعات هو ابطال قداسة الثقافة الأصيلة وذلك عن طريق إغراق النسق الثقافي بكم كبير من النماذج الغريبة عن المجتمع و جعلها تمثل مثلا عليا جذابة و ذلك على حساب النماذج الأصيلة . الذي سيحدث هنا هو ان الثقافة الأصيلة ستفقد من حيويتها و قدرتها على المقاومة ثم قداستها التي تجلب اليها الإمتثال و الإحترام. و في مرحلة ثانية تصبح قيم المجتمع عبارة عن خليط من النماذج و الرموز المتناقضة والتي تولد حالة من الصراع الداخلي لدى الفرد يعيشه على شكل قلق دائم.

بخصوص الثقافة العربية يذهب ج.بارك[9] J.Berque الى أن التناقض في هذه الثقافة هو نتاج العلاقة الخاصة بين الثقافة العربية المنغرسة في ماضيها والمتجدرة في أصالتها والحضارة الغربية. هذا وضع خلق حالة تشوش نفسي- ثقافي جعل الهوية تتأرجح بين وضعيتين متضادتين: بين الأصالة والحداثة، بين المقدس والمدنس...

إن الجزائر ،أكثر من البلدان العربية الإسلامية، تعرف بميزتها الثقافية الخاصة بها والتي تتمثل في تجميع لم يسبق له مثيل، نوع من الخليط الثقافي أين نجد فيه نماذج ورموز ثقافية متعاكسة. إن التناقض الثقافي يعبر على التكاثر والتنوع وأكثر من ذلك، على التباعد الذي يميز القيم الثقافية الذي يجعل من المستحيل بناء نموذج من التنظيم الاجتماعي المتجانس. كل قيمة من القيم الثقافية تأثر بشكل مزاحم منافس للقيم الأخرى لا بشكل مقارب لها. ولهذا فإن الفرد الجزائري يعيش ثقافته على شكل متناقض منقسم بين رغبته في الإرتقاء الى المستوى العالمي (الحداثة) وقلقه من التخلي عن أصالته (التقليدي). [10] يقول في ذلك د. توالبي [11] N.Toualbi في كتابه "الهوية في المغرب العربي ": عدد كبير من الأفراد يجدون أنفسهم غير قادرين على مواجهة حالة التضاد الداخلي للقيم، لأن هته الحالة تسبب لهم الانقسام والتشتت على مستوى نسق التماثلات الثقافية. يجدون أنفسهم لا يملكون سند هوياتي يسمح لهم بتحديد موقعهم والتعرف على محيطهم ويلجؤون لحل لمشكلتهم إلى عالم فقد التعويضDécompensation .

3 الأبوة بين الأصالة و الحداثة :

1.3 الحداثة نقيض الأصالة:

أهم ما نلحظه في الحداثة هو عداؤها لكل ما هو تقليدي.

ان التحديث ليس عملية نمو ذاتية تتقدم بذاتها. انها عملية شتل أو غرس أنماط ومنتجات من منجزات وأفكار مستوردة إلى الوطن . إنه سعي لمضاهاة مستوى النمو الحاصل مع المنجزات التي حققها الآخرين أكثر تقدما وحداثة . وعليه هناك من يرى أن التحديث هو معطى جديد تماما يشكل قطيعة مع الماضي ومع المجتمع التقليدي بكل سماته وقيمه وآلياته لكن هناك أيضا من يرى أن المجتمع الحديث هو استمرار للماضي وللتراث ، ويذهب إلى أن هناك مشاريع تحديثية مختلفة باختلاف المجتمعات التي تظهر فيها.

يمكن تلخيص الحداثة في خمس نقاط هي : الفكر القائم عل المعرفة المجردة– الفردية – الليبرالية – التوجه المستقبلي – العلمانية .

كما نجد الحداثة تتميز بخصائص ثلاث:

- فهي من ناحية المنشأ والسياق التاريخي أوربية.
- ومن ناحية ثانية هي قطيعة مع مفهوم التقليدية السابقة عليها.
- من ناحية ثالثة تعنى بوجود مجتمع مفتوح على كافة المستويات بحيث يستطيع الإنسان أن يتسوق ويعقد أفضل الصفقات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية بغض النظر عن أية ارتباطات سابقة .

يمكننا ان نقدم بعض خصائص الحداثة في سماتها الرئيسية التالية :

- توسع كبير في مجال العلم و التكنولوجيا التي ادّت الى بناء مجتمع الانتاج و العمل الذي يتجه نحو مجتمع الاستهلاك و الترفيه .
- ظهور" الفرد " مع وضعه الذي تميز بالوعي الذاتي و اهتمامه الخاص بنفسه , و تحرره من المؤسسات التقليدية , و تسليم نفسه و تمليكها لوسائل الاعلام و الموضة .
- ظهور الزمنية الوقتية عكس الموسمية , خطية لا دورية , تاريخية لا اسطورية الحداثة دائما معاصرة , تختلط شيئا فشيئا مع الاخبار اليومية بل الانية , و هي بذلك مقلوب الفترة التاريخية .

2.3 الحداثة و الابوة :

ان سمات الحداثة المذكورة سابقا كان لها تأثير في مجال الاسرة تمثل فيما يلي :

- لقد مكن العلم والتكنولوجيا من اكتشاف قوانين الانجاب وتقليص بشكل كبير وفيات الاطفال والتحكم الكبير في النسل. في كل مناسبة من مثل هذه المناسبات يجد الاب نفسه امام حقيقة تفقده سلطته على زوجته. لم يعد الاب المسؤول الوحيد عن الانجاب وعن تربية الاطفال , بعد اكتشاف حبوب منع الحمل, اصبحت المرأة تتحكم في عملية النسل مما مكّنها من التحرر الجنسي والمهني .من جهة اخرى مكّن الانجاب بمساعدة طبية من الفصل التام بين الجنس و الانجاب. اصبحت الحيوانات المنوية تكفي لوحدها في عملية الانجاب بينما لم يمكن الاستغناء عن جسم الام في تكوين الطفل في شكله البشري السليم.
- ان تحول المجتمع من مجتمع انتاج و عمل ثم مجتمع استهلاك و ترف قد حول بشكل جدري المجتمع . في المجتمع الزراعي كانت المراة تعمل بجنب زوجها دون وضع خاص, كان الرجل في نفس الوقت رب الاسرة ومدير المزرعة. في القطاع الثانوي (الصناعي), اصبح الرجل والمراة متساويين في الوضعية بل وتحررت المراة من زوجها بمرتبها الشهري الخاص بها.ان التفريق الذي كان موجودا بين الجنسين على اساس التمييز بين وظيفة الانجاب ووظيفة الإنتاج أصبح اقلّ أهمية مآله الى الزوال .
- ظهور الفردية اثر بشكل كبير في العلاقات الاجتماعية والشخصية. أدى تطور العلوم الانسانية الى ابراز مفاهيم جديدة في المجتمع مثل مفهوم "الفاعل الاجتماعي" و"الفرد" التي ابرزت اهمية الحكم الذاتي للأفراد .ان هذه الرغبة في الحكم الذاتي والتي كانت كامنة في الفلسفة الحديثة (ديكارت),تعرف الان التعبير الاكمل في زمن الرّوّاد مثل نيتش, فرويد, ماركس وغيرهم ممن روّجوا لفكرة القطيعة مع النظام الذي كان قائما في شتّى ميادين الحياة : السياسية, الاقتصادية , الاجتماعية , الفلسفية . ان فكرة الفردية كان لها تأثير مضاد على وضيفة الأب الرئيسية والتي هي وظيفة الإحالة أو تمرير القيم إلى الأجيال الموالية التي أصبحت معطلة لما أصبح الفرد يطمح في صناعة نفسه بنفسه.

- تعدد الانتماءات الاجتماعية للفرد (شغل عدّة وضعيات اجتماعية، أداء أدوار اجتماعية مختلفة) أدّى إلى ظهور مشاكل نفسية جديدة لم يكن يعرفها الفرد من قبل، أصبحت هذه الانتماءات تهدد تناسقه ووحدته النفسية و تدفع به إلى صراعات هوية عميقة.

ان الحداثة قد ساهمت بشكل كبير في اعادة الاعتبار للأبوة ذلك كون، في ظل الأصالة، علاقات الهيمنة بين الرجال والنساء من جهة وعلاقة هيمنة الكبار على الصغار من جهة اخرى, اعطت للآباء صلاحيات قيمة. وكان الاب الضامن للنظام القائم بشكل لا جدال فيه. الكل يكن له بالطاعة والاحترام. ان هذه الهيمنة في حقيقة الامر كانت سائدة نظرا للفكرة التي فرضت نفسها في المجتمع وهي كون الاباء يملكون تلك المادة التي تاتي منها الحياة ويتحكمون فيها وجعلوا منها مصدرا لسلطتهم داخل الاسرة. بهيمنتهم على النساء تمكنوا من هيمنتهم على الاطفال وفرضوا بذلك وجودهم في منصب يسمى "رب الاسرة" وكل ما تحمله هذه العبارة من معاني في النظام الأبوي .

لم تقتصر السلطة الأبوية على مجال الاسرة الخلية الاساسية للمجتمع بل تعدت ذلك لتشمل كل مستويات المجتمع وبشكل خاص الجانب الديني و السياسي .

ان الحداثة بتغيرها الخارطة الاجتماعية وتحديها لقيم الاصالة و تأثيرها الكبير على النظام القائم ادت الى زعزعت استقرار الابوة بتأثيرها على التماثلات التي كانت تدور حول هذا المصطلح , و اعادة توزيع السلطة والقوى داخل الاسرة و داخل المجتمع حيث اصبح الاب ليس الوحيد الذي يمتلك السلطة داخل الاسرة بل تشاركه الام العاملة الناشطة في المجتمع في تلك السلطة , وبإنفاق الام على الاطفال فقد الاب صلاحياته كرب الاسرة او رئيس الاسرة واصبحت سلطته رمزية .

ان ظهور الفردية تتناقض بشكل كلي مع مجتمع يسيّره الاب. هذا الاخير يؤدّي وظيفة التمرير transmission بينما يتطلّع الفرد الحديث الى انتاج نفسه بنفسه autoreproduction. حسب سينقلي فرونسوا دو[12] Singly F de فان الافراد اصبحوا يرفضون ارتداء ملابس خيطت من قبل (الوظائف الاجتماعية للزوج و الزوجة) يريدون ان يخيطوا ملابسهم بأنفسهم كل حسب تطلعاته ورغباته .

من الزواج الذي كان يقرره و ينظمه الاباء و الذي كان يسمى " زواج العقل " انتقلنا الى زواج يقرر فيه المترابطان و اصبح اليوم يسمى " زواج الحب " , و لما كان الحب امرا متغيرا لا يثبت على حال , اصبح الزواج مثله فقلّما تجد اليوم زواجا دام مدّة طويلة . بدأ الزواج شيئا فشيئا يفقد معناه و اصبح الافراد ينظرون اليه على انه انغلاق سجنيّ في ادوار محدّدة سلفا .

من هنا يمكننا القول ان الابوة و الحداثة تتناقضان في نقاط كثيرة :

- الابوة تمنح امتياز الجنس و الخبرة اما الحداثة تعزز المساواة بين الافراد مهما كان سنّهم او جنسهم و هي بذلك تمجّد الشباب .
- الابوة تمثل السلطة داخل الاسرة على صورة النظام الاجتماعي و السياسي السّائد , اما الحداثة تؤدي الى خوصصة الاسرة ثم تقييدها ثم انفجارها .
- الابوة تؤمن بمبدأ الاحالة transmission, اما الحداثة فتؤمن بمبدأ الانفصال والابتكار, تحفّز الاستقلال الذاتي و التكيّف المستمر مع التحوّلات الاجتماعية .
- الابوة تنتمي الى زمان ومكان اما الحداثة فتفرض ايقاعها الزمني وتؤمن بمبدأ الاقتلاع .Déracinement

هل اصبح بعد كل هذا مكان للآباء في ظل الحداثة؟

هل اصبح عهد الحداثة عهد الابناء فقط ؟ و ماذا عن ابناء بلا اباء ؟

امام هذه المعطيات على الاباء اعادة تعريف مكانهم وتحديد وظيفتهم ومصدر سلطاتهم لانهم قد فقدوا الصورة السلطوية التي كانوا معروفين بها في حقبة زمنية مضت, واصبحوا يمارسون وظيفة الامومة في محاولة تموقع جديد يحفظ لهم ماء وجههم داخل مؤسسة (لابوة) تهددهم بالاستقالة.

امام هذا التحوّل الاجتماعي بقيت المؤسسات الاجتماعية والقانونية تتفرّج مكتوفة الايدي والافواه لا يستطيع الاب الاعتماد عليها في بناء هويته الابوية . سيبقى حبيس التطوّرات التي يشهدها مجتمعه وحبيس العلاقات بين المجتمع و افراد يعيشون حالة ازمة .

فيما يخص الآباء عليهم اليوم أن يوفقوا بين النموذج العائلي والاجتماعي الذي ورثوه من آبائهم والتوجهات الحديثة فيما يخص الوظيفة الأبوية. عليهم أن يحافظوا على وحدتهم وتناسقهم النفسي وهم ينتقلون من الأسرة إلى العمل إلى الجمعيات إلى المسجد حيث أصبحت كل وضعية من هذه الوضعيات تحاول فرض نماذج إقتداء في غالبها متناقضة تناقض الغشاء الثقافي الذي يجمعها.

ما يمكن قوله الآن هو أنّ الأب التقليدي مهدّد بالزوال في مجتمع يتخلّى شيئا فشيئا عن قيمه التقليدية ويتطلّع إلى حياة جديدة يراها حديثة. إن الأب الحديث عليه أن يعيد تعريف نفسه ووظيفته ثم البحث عن مصادر جديدة لسلطته وكل هذا طبعا بعدما يجتاز الصراع النفسي وأزمة الهوية التي هو فيها. إن هذه الأزمة تدفع بعض الآباء إلى لعب دور الأمّ الثانية والبعض الآخر إلى لعب دور الأب الدجاجة أو الحمار وتدفع أغلبهم إلى الاستقالة من منصبهم.

المراجع

- سهير كامل احمد، سيكولوجية نمو الطفل، مركز اسكندرية للكتاب، 1999
- Addi H, Les mutations de la société algérienne, famille et lien social dans l'Algérie contemporaine, Paris, La découverte, 1999.
- Berque.J, le Maghreb entre les deux guerres, seuil ;Paris,1969.
- Boutefnouchet M , La famille algérienne : évolution et caractéristiques récentes, Alger, SNED,1979
- Lacheraf. M. L'Algerie , nation et societé, Maspero, Paris, 1965
- Rey A / Rey-DEBOVE J, LE PETIT ROBERT 1, Le ROBERT, Paris XI. 1992.
- Robert Lafon, Vocabulaire de psychopédagogie et de psychatrie de l'enfant, Quadrige édition, PUF ,Paris, 2001
- Singly F de, Sociologie de la famille contemporaine, Paris : Nathan Université,1997
- Toualbi. N :

1984,Le sacré ambigu ou des avatards psychologiques du changement social, ENAL, Alger.
2000, Identité au Maghreb, L'errance, CASBAH, Alger.
2006, L'ordre et le désordre, Casbah, Alger .

الهوامش

1. Addi H, Les mutations de la société algérienne, famille et lien social dans l'Algérie contemporaine, Paris, La découverte, 1999, P12.
2. Boutefnouchet M , La famille algérienne : évolution et caractéristiques récentes, Alger, SNED,1979.
3. Rey A / Rey-DEBOVE J, LE PETIT ROBERT 1, Le ROBERT, Paris XI. 1992.
4. Robert Lafon, Vocabulaire de psychopédagogie et de psychatrie de l'enfant, Quadrige édition, PUF ,Paris, 2001,p783.
5. idem, p783.
6. سهير كامل احمد، سيكولوجية نمو الطفل، مركز اسكندرية للكتاب، 1999،ص166.
7. Toualbi. N, L'ordre et le désordre, Casbah, Alger, 2006, p 23.
8. Lacheraf. M. L'Algerie , nation et societé, Maspero, Paris, 1965.
9. Berque.J, le Maghreb entre les deux guerres, seuil ;Paris,1969.
10. Toualbi N., Le sacré ambigu ou des avatards psychologiques du changement social, ENAL, Alger, 1984 , p11.
11. Toualbi. N, Identité au Maghreb, L'errance, CASBAH, Alger ,2000, P152.
12. Singly F de, Sociologie de la famille contemporaine, Paris : Nathan Université,1997,86.